خطاب المرأة والمجتمع:
دراسة سوسيولسانية لخطاب المرأة التازية بالبرانص وغياثة

الباحث بدر الحداد
مختبر الأدب والبناء الحضاري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة
الباحث نورالدين الإدريسي
مختبر اللغة والأدب والترجمة
الكلية متعددة التخصصات، تازة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس
المغرب

مقدمة:

إن خطاب المرأة من أهم المواضيع التي شكلت منبعا لا ينضب في الدرس السوسيولساني، حيث إن المختصين بهذا المجال الخصب الشاسع الآفاق جعل من لسان المرأة موردا مميّزا في علاقتها بمحيطها الاجتماعي والسياق المجتمعي الذي يدفعها إلى النطق بأقوال تعبر من خلالها عن حياتها الاجتماعية.

فإذا كانت السوسولسانيات علما يدرس لغات المجتمعات وخصوصياتها وامتداداتها الجغرافية دراسة تستند إلى مستويات الدرس اللساني، وإذا كانت المرأة تنفرد بخصائص لغوية تميزها عن الرجل، فإن السوسيولسانيات هي الفضاء العلمي الشاسع الذي يمتلك المفاتيح الممكنة من ولوج عالم المرأة الخطابي المجتمعي ووصفه بالشكل الأنسب بالنظر إلى المميزات وتنوعاتها المجتمعية في مختلف المواقف التواصلية.

المحور الأول: اللسانيات وامتداداتها في المجتمع:

1- اللسانيات واللسانيات الاجتماعية:

يتسع البحث اللساني ليشمل أوجه النشاط اللّغوي لدى كل فئات المجتمع الإنساني؛ بدءاً بمنجزات العقل الإنساني في أرقى صورها في الآداب والفلسفة، والعلوم، ومروراً بالاستعمال اللّغوي التواصلي الإبلاغي في الحياة اليومية، الذي يصوِّر الحياة الاجتماعيّة أحسن تصوير.

ومن هنا، وأخذاً بمقولة (دي سوسير) في أنّ "اللّغة إنتاج اجتماعي لقوى الكلام"[1]، لا بدّ من النظر في المادّة اللّسانية التي ينجزها الناس في شتى مناحي الحياة، ومحاولة إعادة قراءتها وتحليلها وتفسيرها عبر المنجز اللّساني الحديث الذي أتاحته اللّسانيات الاجتماعيّة بآفاقها الرحبة؛ فإن مهمة علم اللغة ومنجزاته اللسانية –كما نفهمها– "تزودنا بمعرفة جديدة ستساعدنا لا محالة على فهم أفضل لمناطق هامة من الوجود الإنساني بأبعاده الفردية والاجتماعية ظلت مهملة لوجودها خارج دائرة تصنيفات المعرفة اللغوية التقليدية".[2]

لقد فتحت اللسانيات الاجتماعية أمام الباحثين في مجالات متعددة آفاقا رحبة لتناول المنتوج الإنساني من زوايا نظر متنوعة، وأعادت النظر في طريقة التعامل مع قضايا المعنى وفهم الرسائل الكلامية التي تصدر عن الناس في مختلف المواقف التواصلية التي تقتضي خطابات متباينة تبنى على لغات خاصة[3]، ويأتي هذا العرض ضمن هذه الرؤية؛ فهو يتطرق إلى خطاب المرأة التازية في ضوء علم اللغة الاجتماعي، وذلك بالاقتصار على المرأة البرنوصية و الغياثية بالنظر إلى خطاباتها المنبعثة من رحم مجتمعها الذي تحكمه ظروف وأنتربولوجية خاصة.

2- في ضوء اللسانيات الاجتماعية:

إذا كان النشاط الإنسانيّ عموماً يتجلّى في الإطار الاجتماعي؛ فإنّ اللّغة تقف على رأس هذا النشاط وهذا التجلّي. ويقصد بالإطار الاجتماعي "نسق العلاقات المستقرّة والثابتة، والمتجدّدة في صلب مؤسّسة المجتمع، التي توزّع المراكز وتحدّد المهمّات والمواقع المختلفة بين أعضاء الجماعة"[4]. وقد أكّد (سوسير)، كما أكّد بعده (سابير) على أنّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة، و ينبغي أن تدرس على هذا الأساس[5].

ويمكن أن نلحظ أنّ مجمل الاختلافات بين اللّغات تقع ضمن المنظور الاجتماعي، الذي "يتّصف بتمثيل الممارسات الاجتماعيّة وترميزها"[6]. ومن ثمة تعدّ اللّغة الأداة الأكثر كفاءة في تأكيد خصائص الجماعة؛ فهي "العلاقة التي بها يعرف أعضاء الجماعة، والنسب الذي إليه ينتسبون"[7]، حيث تعبر اللغة عن المجتمع الذي تنشأ فيه، ومن هذه الفكرة انبثق علم اللّغة الاجتماعي.

وهذا العلم فرعٌ من فروع علم اللّغة التطبيقي ومن أحدثها نشوءاً. بل هو من أبرز إنجازات الدرس اللغوي المعاصر؛ ذلك أنه ينتقل بمفردات الدرس اللغوي في مجال الأصوات والأبنية والنحو والأساليب إلى أفق الاستعمال الحي في اللغة التواصلية التي تصف أنشطة الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيا بامتياز، وهذا الانتقال كفيل بإعادة الحياة إلى الدرس اللغوي في العربية الذي عانى ضرباً من الجمود قصر دراساته على بعض الشواهد الجامدة فيما بقيت النصوص الحية المتصلة بسياقاتها بعيدة عن هذا الدرس.

3- الوظيفة الاجتماعية للغة:

لقد تبين أن النحاة واللّغويين والبلاغيين وعلماء القراءات والمفسّرين أظهروا تمثّلاً واضحاً للوظيفة الاجتماعيّة للّغة[8].وذلك بالنظر ظروف الناطقين بها وأغراضهم ، وحسبنا أن نشير إلى تعريف ابن جنّي للّغة بأنّها "أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"[9]؛ فهذا التعريف ينمّ، وبشكل بين، عن وعي علماء العربية بالعلاقة بين اللّغة والمجتمع؛ "فالقوم عند ابن جنّي يعني المجتمع"[10]، إذ إن مراعاة هذا الجانب الاجتماعي أصل من الأصول الكبرى التحليل اللّغوي[11]. ولكن يبقى فضل صياغة نظريّة واضحة المعالم للعلاقة بين اللّغة والمجتمع لعلماء اللّسانيات الاجتماعيّة في عصرنا هذا.

ويعنى علم اللغة الاجتماعي بملاحظة التفاعل بين اللّغة والمجتمع، وتأثير كلّ منهما في الآخر، معتمداً على مبادئ علم اللّغة وعلم الاجتماع، وباختصار، فإنه العلم الذي يعنى "بدراسة اللّغة في علاقتها بالمجتمع" كما يقول هدسون[12].

إنّ وظيفة هذا العلم هي البحث في الكيفيّات التي تتفاعل بها اللّغة مع المجتمع الذي تحيا في كنفه . إنّه ينظر في التغيّرات التي تصيب بنية اللّغة استجابة لوظائفها الاجتماعيّة المختلفة، مع بيان هذه الوظائف وتحديدها[13]. أمّا هدفه فهو "التوصّل إلى القواعد والضوابط التي تحكم الاستعمال الفعلي للّغة في إطار المجتمع"[14]. لكنّ هذا الهدف بعيد المنال، ما لم تقم بحوث لغويّة ذات طابع اجتماعي بشكل متّصل ومتتابع وشامل، برصد الظواهر اللّغويّة في بعدها الاجتماعي ولكافّة الجماعات على تنوّعها؛ ولهذا نجد (برتراند رسل) يصف ما نعرفه عن الكلام واللّغة بالضآلة، ويدعو إلى طريقة سلوكيّة دقيقة في البحث اللّغوي، ويقول: "إنّني أظنّ أنّ المعنى لا يمكن أن يفهم إذا عالجنا اللّغة على أساس أنّها عادة جسميّة، والمبدأ الصحيح لعلم اللّغة هو دراسة ما يقوله الناس وما يسمعونه وسط المحيط والتجارب التي يعملون فيها الأشياء"[15]. ويقتضي تحقيق هذا الهدف العمل بنشاط ودأب للإجابة عن السؤال الهام: كيف تعمل اللّغة في المجتمعات المختلفة؟ وما هي التمايزات اللغوية القائمة باين أفراد المجتمع بالنظر إلى الانتماء الاجتماعي والجنسي؟

ومن أهمّ الأفكار التي يقوم عليها علم اللّغة الاجتماعي أنّ الخطاب يتشكَّل على أساس التفاعل بين الأفراد والجماعات، وفي إطار من العلاقات التي تستند إلى مرجعيّة معرفيّة واجتماعيّة متّفق عليها بين أبناء الجماعة اللّغويّة الواحدة. وكذلك بين أفراد الجنس الواحد، حيث يبنى التواصل بين المتخاطبين على "أساس أنّهم ممثِّلون اجتماعيّون؛ فالمعنى ليس موجوداً من قبل، وإنّما هو صادر عن تجابه المجموعات الاجتماعيّة، ومن ثم لا تعود الدلالة لغويّة فحسب، بل أصبحت ذات بعد براغماتي"[16] تعكسه السياقات الاجتماعية التي تعيش فيها اللغة.

4- السوسيولسانيات والمعطيات الاجتماعية:

يعالج اللّسانيّون الاجتماعيّون "مشكلة التغيّرات اللّغويّة والفقر اللّغوي والتغيّرات النحويّة وأسبابها في بيئات اجتماعيّة معيّنة، مع الأخذ بعين الاعتبار: حالة المتكلِّم، ونوع الخطاب اللّغوي الذي يستعمله، ووظيفة الأفراد المخاطَبين، ومستوياتهم"[17].

إنّ المعطيات الاجتماعيّة، وفقاً لهذا، "أشبه بأداةٍ يستعملها الباحث اللّغوي ليتمكّن من تحليل الأشكال اللّغويّة، ولا بدّ من تحديد المعطيات الاجتماعيّة المؤثّرة في اللّغة، والتي تشكّل الإطار الاجتماعي للحدث الكلامي، ومن خلالها يمكن الربط بين الأشكال اللّغويّة والعناصر الاجتماعيّة الفعليّة"[18].

ومما يذهب إليه السوسيولسانيون أنّ التركيب الاجتماعي يؤثّر في شكل التركيب اللّغوي[19]. ويستدلّون على ذلك باختلاف لغة الأطفال عن لغة الكبار، واختلاف اللّغة باختلاف: الأصل الإقليمي، أو الاجتماعي، أو العرقي، أو الجنس. كما أنّ هناك طرقاً خاصّة للتكلّم واختيار الكلمات تحدّدها متطلّبات اجتماعيّة معيّنة[20]. "إنّ الفرد يأخذ لغة الجماعة ويتفاعل معها، وتؤثّر فيه ويؤثّر فيها، وهو يعدّل فيها ما دام حيّاً"[21].

وقد أظهرت السوسيولسانيات تعدّد اللّغات المتداولة في المجتمع الواحد، من خلال تأثير الأبعاد المتّصلة بالاستعمال الاجتماعي للّغة، وهي: الانتماء إلى جماعة معيّنة، والعلاقات بين المتخاطبين، وموضوع المخاطبة، ومجال التفاعل، وقناة الاتّصال، والدور الذي يضطلع به الأفراد في التفاعل وغيرها[22].

وبالمقابل، فإنّ اللّغة تؤثّر في التركيب الاجتماعي، كما يؤكد هورف (B.LWhorf) وبرنستين (B. Bernstein)[23]. ويدمج جومبرز (J. J. Gamperz) بين الوجهتين؛ فيذكر أنّ علم اللّغة الاجتماعي يبتغي إيجاد روابط بين التركيب الاجتماعي والتركيب اللّغوي. وينبغي ملاحظة التغيّرات في الخطاب في ضوء تغيّرات الواقع الاجتماعي[24].

إنّ اللّسانيّات الاجتماعيّة تقوم على أخذ الجانب الاجتماعي بعين الاعتبار في فهم آليّات إنتاج المعنى وآليّات فهمه، أو هو "إدراك الأبعاد اللّغويّة في السيرورة الاجتماعيّة"[25]؛ ففي هذا العلم تبرز بنيتان: البنية اللّغويّة بكل مستوياتها، والبنية الاجتماعيّة، وهي معنىً "يشمل: الجوانب الاقتصاديّة، والسياسيّة، والثقافيّة، والأوضاع الاجتماعيّة"[26]، إذ تتحكم هذه الجوانب في إنتاج خطابات لغوية مزركشة بفسيفساء السياق المجتمعي الذي ترد فيه.

المحور الثاني: السوسيولسانيات وخطاب المرأة:

1- التشارك الاجتماعي واللغة:

يقصد سابير ب"التشارك الاجتماعي" في مجال علم اللّغة الاجتماعي، أنّ "اللّغة باعتبارها نشاطاً اجتماعيّاً تفصح عن العلاقات الشخصيّة والقيم الحضاريّة والاجتماعيّة"[27]؛ فاللّغة تعدّ من أقدر الأنشطة وأقواها وأكثرها فاعليّة حين نريد استقصاء ملامح مجتمع معيّن، وحين نريد أن نقف على: أعرافه وتقاليده، وعقائده، وتكوين ذوقه الجمالي، وفعله الحضاري.

إن التشارك الاجتماعي يبنى في العادة على الرؤى الفكريّة للجماعات الإنسانيّة، وتكون اللّغة هي الوسيط بين أفق الجماعة الداخلي (فكرها وفلسفتها) وأفقها الاجتماعي الواسع الذي تعبر عنه المواقف التواصلية المتنوعة. ويطلق عبدالله إبراهيم على هذه العمليّة اسم التلقّي الداخلي[28]. وقد انتهى (فان ديك) إلى أنّ دراسة النص، بوصفه متواليات لسانية تعكس ملامح ثقافيّة، لا بدّ أن تمرّ بدراسة عدد من السياقات من أبرزها: السياق المعرفي، والسياق الاجتماعي–النفسي، وصولاً إلى السياق الاجتماعي–الثقافي. وكلّ هذا يبدأ بدراسة النّص فعلاً لغويّاً، ثمّ بعملية فهمه وتأثيره، وأخيراً تفاعلاته مع المؤسّسة الاجتماعيّة. ويعزو (ديك) اختلاف الظواهر الثقافيّة، وشيوع من النصوص، بما في ذلك البنيات النسقيّة والأسلوبيّة والبلاغيّة من ثقافة لأخرى، إلى طبيعة ذلك التفاعل ونوعه وشروطه وعصره[29].

إن هذا الضرب من الدراسة اللّغويّة يعود إلى تطوّر اللِّسانيات منهجاً وميداناً، وذلك حين انتقلت "من دراسة الجملة ، إلى دراسة الخطاب. وحين اتّسعت ميادينها فغطّت ما كان يعتبر من خصوصيّات غيرها، ولامست العلوم الاجتماعيّة والفلسفيّة وعلم النفس والأنثروبولوجيا والإثنولوجيا"[30]. وإنّ هذا الضرب من الدراسات —وفقاً لفرانسواز آرمينغو– ينظر إلى اللّغة باعتبارها "ظاهرة استدلاليّة وإيصاليّة واجتماعيّة في الوقت نفسه"[31]؛ فاللّغة أداة نقل الأفكار بين المتكلّمين تحقيقاً للشرط الاجتماعي الإنساني، وهو ما يسمّى علماء اللّغة الإيصال. "وهذه العملية تربط بين طرفين: بين اللّغة نظاماً والإيصال هدفاً للمتكلّمين، ويكون ذلك ضمن علاقة تمثّل اللّغة فيها أداة الإيصال، ويمثّل الإيصال فيها وظيفة اللّغة"[32].

إنّ تحليل الاستعمال اللّغوي في هيئته النصيّة لا الجمليّة هو الهدف المشترك بين النّص والخطاب والاتّصال، ولعلّ هذا من أهمّ الإنجازات المنهجيّة للنظريّة اللّسانيّة خلال العقود الثلاثة الماضية[33]. وإنّ انتقالنا إلى دراسة النصوص ينبغي أن يكون "انتقالاً من الثبات إلى الحركة، ومن كمّ المادة المحلّلة إلى توسيع في كيفيّة التحليل؛ كالنظر إلى العلاقات بين المنطوقات، والتفاعلات بين المشاركين في الاتّصال، ومقاصدهم"[34].

2– السوسيولسانيات وخطاب المرأة:

يعدّ خطاب المرأة من أبرز الأشكال اللغوية التي تعكس العلاقة بين اللغة والمجتمع، وهو مظهر حي من مظاهر الاستعمال اللغوي، و الذي يحمل في طيّاته رسائل لغوية مميّزة[35] تعكس الخصائص و المميزات الاجتماعية والنفسية والمعيشية والتاريخية التي تعبر عن كيان ينصهر فيه جميع أفراد المجتمع، هذه الخصائص والمميزات هي ما يطلق عليه اسم الهوية الثقافية. وتعتبر الثقافة عنصرا هاما من عناصر التراث الاجتماعي.

ويشمل التراث الثقافي أمورا معنوية وأخرى مادية، إذ لا تقلّ إحداهما عن الأخرى. وتعدّ العادات والتقاليد من مكونات الثقافة التي تخلو من رسائل يحملها الفرد إلى أي مكان معبرا بذلك عن هويته.

لكن اليوم كل هذا التراث مهدد بالضياع والزوال والتغير، وهذا راجع إلى عدة أسباب يتمثل أهمها في تغير نمط الحياة التقليدية وعصرنة الثقافة المادية.

3– دراسة سوسيولسانية لخطاب المرأة:

إن اللغة مرآة ثقافية تثبت تمظهرات رمزية، وهي صدى لكل المسبقات الجاهزة.ومنذ ظهور كتاب «الجنس الثاني» لسيمون دو بوفوار تغيرت ثوابت كثيرة منها أن المرأة لا تولد امرأة ولكنها تصبح كذلك نتاجا للمجتمع.

للمرأة مكانة مميزة لدى مختلف القبائل المغربية، ولعل أهم ما يعكس هذه المكانة خطابها الذي يحمل رمزية تصنف الطابع الأنثوي وخصوصياته، حيث إنها تهيئ لنفسها فضاء خصبا تعبر فيه عن مشاعرها وآرائها ومواقفها تجاه محيطها وعلاقاتها العاطفية والاجتماعية.

ويرجع هذا الوصف لكونه مجتمعا يقدس العلاقات الاجتماعية، مما منحها دورا مؤثرا في تطوير حالتها الروحية والأخلاقية والإنسانيّة وتنميتها، فساعدها ذلك على تحقيق ذاتها، والاستفادة من قدراتها الفطرية. فللمرأة أن تدلي بآرائها في ما يتعلق بالأسرة وبتنظيم المناسبات الاجتماعية وتسيير الاحتفالات العائلية والموسمية معبّرة بذلك عن محيطها الأسري أو القبلي وعادات مجتمعها وأعرافه.

وفي الجانب الميداني سنعرض عادات وتقاليد الجانب اللهجي المتعلق بخطاب المرأة بقبيلتي غياثة والبرانص بإقليم تازة.

لم تخلُ قبيلة غياثة من مميزاتها على المستوى اللهجي في المناسبات الاحتفالية، حيث إن المرأة الغياثية تعبر عن أجواء الاحتفال بطريقتها الإيقاعية المميزة؛ خاصة عندما يتعلق الأمر بمناسبة الزفاف؛ فخطاباتها ورسائلها تتنوع من طقس إلى أخر أو بالأحرى من وضعية إلى أخرى بالنظر إلى ما تقتضيه أعراف الاحتفال.

ففي يوم الحناء يعبر كلام المرأة الغياثية عن توظيفها الأسلوب الإنشائي القائم على الأمر في علاقته بوصف العروس وهذا واضح من خلال التعابير الآتية:

"دقق الحنا والحنا ورقية وتصبغ خيتي حمرة عقيقية"

"دقق الحنا والحنا وتاتا وتصبغ خيتي بين خواتاتا"

"احنيوا للالة على السبيبة من فراق يما الحبيبة احنيوا للالة على السرج العالي من حر الفراق يما وحبابي احنيوا للالة والطير يا الطير مول الربابة من حر الفراق يما وبابا"

إن أسلوب الأمر هو مستهل هذه التعابير بصيغتي المخاطب المفرد والجمع، كما أننا نلحظ تكرار الفونيمات مثل الحاء والقاف والنون، إضافة إلى التوازي الوارد بين جملتين موصولتين بواو العطف. فهذا الخطاب اللهجي لا يخلو من كلمات فصيحة مثل فراق، السرج، الربابة فهذه الأخيرة هي آلة موسيقية وترية ذات وتر وحيد قد وظفت في هذا السياق لتعبر عن انفراد العروس وبعدها عن أبويها من ناحية وأجواء الاحتفال من ناحية ثانية.

"ألالة والله ما نساك غادي نجيب رحيلي ونجي نسكن حداك"

" الالة العروسة حنات الحناني في دار باها بالجاه العالي"

" يديك مليح واعجبني يا الالة ودمليجو يلازمني يا لالة"

رجلك مليح واعجبني يالالة شربيلو يلازمني يالالة"

ذاتك مليح واعجبني يالالة قفطانو يلازمني يا لالة"

"اليدين والرجلين الصابغين الحنا والعينين والحجبين هما نوار الجنة"

كما أن التعبير عن كفاءة العروس في أداء أشغال المنزل حاضر بقوة في خطاب المرأة الأم، حيث تعبر عن هذه الكفاءة بما تساعد الفتاة القروية أمها من أعمال داخل البيت وخارجه، ومن ذلك قولها:

" قالت يماها بنتي بنتي ومخملالي حالتي وطاحنالي رحاتي والساقية كربتي"

أما في ما يخص حنّاء العريس، فإنه لا يختلف عن حناء العروس كما أن التعبير يكون على المستوى الصوتي إيقاعيا كذلك، وهناك استحضار للجانب الديني مع توظيف رمز السلطة ورمز الطبيعة في هذا التعبير، وذلك حين قدوم عائلة العريس إلى بيت العروس، ومن ذلك:

"دقق الحنا ودقوا بالزايد وراه احبابو شلا وما بحالو قايد"

"أطرب يا الحمامة وطرب بالجناح وسيدنا محمد كيصلي الصباح"

" أطرب يا الحمامة وطرب بالرجل وسيدنا محمد كيصلي الفجر"

ومما يشد الانتباه في خطاب المرأة الغياثية يوم العرس هو حضور الاهتمام بالعمومة وكرم الضيوف، ومنه:

" هذا عرسك أخيي وهذا هو فين جاني فرحوا معك بنات عمك مشطوا شعرهم بالحناني"

"خيي ضايفوه الجيران هداولوا المال والثيران"

" خيي ضايفوه عماموا هداولوا المال فكمامو"

"خيي ضايفوه الشرفة هداولوا المال فالغرفة"

– يظهر أن أسلوب التصغير حاضر في خطاب المرأة وهي تمدح العريس في علاقته بضيوفه وهداياهم في جمل خبرية تسرد كرم الضيوف لا تخلو بدورها من طابعها الإيقاعي الذي يحدثه تكرار فونيمات مثل اللام والفاء والراء، وصيغ صرفية مثل الفُعْلة: في الشرفة والغرفة، وكلمات ك ..: خيي والمال، والجمل ك.: ضايفوه وهداولو المال ومن المثير للانتباه في هذا الخطاب الحضور القوي لعلاقة العمومة – كما سلف الذكر– في غياب تام للخؤولة، كما يجب أن لا نغفل استعمال كلمات فصيحة مثل : المال والغرفة

ومن أقوال المرأة الغياثية المأثورة في الحياة اليومية نجد ما ترده في شأن:

– الزوج المتسبب في المشاكل:

" أيما حنا واش هاد المفلس هو يدير الفالطا وانا نخلص"

"أيما حنا واش هاد المدعوي هو يدير الفالطا وانا نداوي"

الزوجة التي يحبسها زوجها أو أبوها أو أخوها في البيت:

"أطالباك أربي في حارس الزين يعطيه مرض السل ويعمى من العينين"

– المرأة التي سجن أخوها لسبب من الأسباب:

"أ خو فاطمة لايعوك الحال والسنسلة والحبس معطي للرجال"

– المرأة عندما تمرض:

"أراني مريضة وعطامي طاحو عليا جيبوه ليا يخوي بزطامو عليا"

-الزوج الذي لايفي بوعوده لزوجته:

"الله ينعل لي يفايش يقول الكلمة ومايوفيهاش"

أقوال المرأة الغياثية في حياتها الأسرية اليومية تعبر عن واقعها بشكل إيقاعي يدل على حالتها النفسية والاجتماعية في علاقتها بأفراد عائلتها؛ فهي توظف خطابا يتجاذب فيه أساليب متنوعة مثل أسلوب الدعاء والحسرة والتحفيز، بواسطة ألفاظ تجمع بين اللغة العربية الفصيحة (مرض السل، يقول، الحال، الحبس، المفلس...) واللغة الأجنبية (الفالطا)، مع هيمنة السواكن دون أن نغفل التميّز على المستوى الصوتي وهذا بيّن في (عطامي) عوض (عظامي) و(السنسلة) بدل (السلسلة).

لكل قبيلة خطاب مميز لها، من حيث جوانبه اللسانية على مختلف المستويات، إذ إن هذا الخطاب يزداد خصوصية بالنظر إلى الناطق به من جهة والسياق الذي يرد فيه من جهة أخرى. فإذا كان المجتمع المغربي يوسَمُ بمجموعة من الاختلافات والتنوعات الثقافية فإن هذا الوَسَمُ مقرون بتنوع لهجي، يميز قبيلة عن أخرى.

إن قبيلتي البرانس وغياثة اللتين تتشاركان جغرافية تازة من مختلف الجهات إلى جانب قبائل أخرى (التسول – صنهاجة – بني وراين...) تحملان خصائص لهجية متميزة، ولعل المرأة المنتمية إلى إحدى هاتين القبيلتين تمكن هذه الخصائص، حيث يمكن دراسة ما تتلفظ به المرأة البرنوسية أو الغياثية من الناحية الدلالية والصوتية والتداولية.

وسنستهل الحديث عن المرأة البرنوسية من خلال تحليل ما توصلنا إليه بعد بحث ميداني (رواية شفوية تخص نساء قبيلة البرانس).

إن هذه النماذج هي أقوال مأثورة متداولة بين نساء قبيلة البرانس حيث يستعملْ نَـهَا في سياقات مختلفة للتعبير عن رؤاهن ووجهات نظرهن وعواطفهن تجاه مواضيع مختلفة وهذه الأقوال كالآتي:

1- أيا خويا نتوما ثلاثة دلخوت حشومة ندير لفوث نمشي معاكم في الصواب حتى نموث.

إن أهم ما يثير الانتباه في هذا القول هو حضور الجانب الإيقاعي الذي سنجده حاضرا بقوة في خطاب نساء القبيلتين، حيث إن أقوالهن يمثل زجلا بالسليقة، فمن الناحية الصوتية هذا القول ينقسم إلى ثلاثة أجزاء، كل جزء ينتمي بثاء ساكنة مسوقة بحرف مد هو الواو، وهذا ما أظفى بعدا إيقاعيا الذي قد يكون غرضه هو التأثير في المتلقي خاصة وأن هذا القول مستهل بأسلوب إنشائي يمكنه النداء (أيا خويا) وهذا ما يؤكد أن غرض القول ليس الإخبار بل التعبير عن وعد موجه من امرأة أقبلت على الزواج وهي تخاطب زوجها، ومما أثار الانتباه في هذا القول هو كلمة (لفوث) المأخوذة من لغة المستعمر ليس فقط عند الذكور بل حتى عند النساء اللائي لم يلجن المدرسة قط، لأن مرجع الأقوال التي أخذناها في كليتها هو نساء قرويات أميات. ومن هذا يمكن القول أن المرأة القروية تتمتع بقيم تربوية وخلقية متوارثة.

2- نتا يا عبيد لماء، وكحل كيف لبرمة، نطلب الله نطيرو مبلادنا.

إن هذا القول، أول ما يثير الانتباه فيه كذلك هو حضور التوازن الإيقاعي من خلال انتهاء الجزأين الأولين بميم مفتوحة في حين الجزء الأخير ينتمي بنون مفتوحة وهذا لم يؤثر على البعد الإيقاعي في القول، بل زاده تميزا خاصة وأن النون في آخر جزء هي نون دالة على الجماعة تعكس الهم المشترك بين الرجل والمرأة. ولعل هذا الهم هو الجراد الذي سطا على البلاد وأتلف خيراتها، حيث إن المرأة هنا وضفته بتوظيف التصغير (عبيد) تحقيرا له، ونعتته بسواد القدر (البرمة) قبل أن تدعو الله أن يخلص البلاد من هذا الوباء. لقد استحضرت المرأة البرنوسية في قولها هذا محيطها الذي تتعايش معه يوميا (الماء + الطهي).

3- أيا خويا داك لكلام لي قلت البارح، ودبا الله يسامح مناين أدخطر لقرادة في لمرح.

إن ما يستوقفنا في الكلام المسجع هو الحضور الدائم للجانب الإيقاعي المتمثل في حرف الحاء [البارح – يسامح – لمرح]، وهذا ما يؤثر على أذن السامع، كما أن هذا الكلام موجه من امرأة إلى أخيها الذي تعرضت من لدنه للسب والشتم والتحقير، إلا أن قيمها العالية التي تتمتع بها جعلتها تسامحه.

4- أنت يا قمح المرجة هذي عام وأنا نرجى وهذي بنت عمك حمرتلك لوجه.

لقد حضر في هذا الكلام تناغم صوتي متوالي، والمتمثل في عبارات [المرجة – نرجى – لوجه] بغية استمالة المتلقي والتأثير عليه، كما أن هذا الكلام موجه من امرأة تتمتع بكفاءة عالية في تحمل المسؤولية مع أقرب المقربين إليها ابن عمها وزوجها، الذي تشبه للدلالة على الخير والبركة والخصب.

5- نتوما ثلاثة بيكوم، فداك روا نلقيكم بلوبة نسد عليكم، والقهوة نسربي ليكم، ولا ناد شي بارود كي نلقيلكم.

لقد اتسم هذا القول بتوازن إيقاعي متتالي والمتمثل في عبارات [بيكوم – نلقيكم – عليكم – ليكم – نلقيلكم]، والذي أفضفى نوعا من الجمالية الصوتية التأثيرية في المخاطب.

إن هذا الكلام يدل على رجل يخاطب زوجاته الثلاث، ويعدهن بتشريفهن في مكان آمن ومحترم (روا) من أجل الحفاظ عليهن، والحرص على خدمتهن (تقديم القهوة)، والتفكير فيهن إذا حدث مكروه كيف يدبر حمايتهن.

6- يا خويا مول صبيبط مقفول، وجوج دلقمايج بلكول، نتاكي لمكانا على يدي دكون.

لقد وظفت صاحبة الخطاب كلا ما يتسم بتناغم إيقاعي أظفر عليه جمالية تسحر المتلقي، والمتمثل في كلمات [مقفول – بلكول دكون...]

إن هذا الخطاب موجه من لدن امرأة تصف رجلا ذا همة عالية، وتحاول بحيلتها التقرب منه والسيطرة عليه، كما تسيطر على الساعة في يدها:

نْتَايَا كْوَيَّسْ لَوْدَعْ مَحْطُوطْ فُوقْ لْمَرْفَعْ، إِلَى طَاحْ وَ تْـهَرَّسْ، رَاسْ لْمَالْ ضَاعْ.

إن هذا القول، يتميز بحضور إيقاعي متميز، أضفن عليه جمالية تجعل السامع يتشبعه ويتفاعل معه.

وهذا الخطاب تحاول فيه المرأة بيان قيمة الرجل داخل البيت، باعتباره رأسمال رمزي، وفقدانه بشكل فقدانا للأمل والآمان.

مْشِيتْ أَحْبِيبِي وْمْشِيتْ، شْكُونْ غْلَيَّ وَصِّيتْ، دَعَنْدُو شِي حْبِيبُو فَكْرو وَنَا بْقِيتْ.

إن أول ما سيوقفنا في هذه العبارات، هو حضور الجانب الإيقاعي المتميز والمثير للتابعة والتأثير.

والخطاب هنا من لدن امرأة تقوم بعملية رثاء على زوجها الذي غادرها ولم يعد، فخلف لها فراغا ملموسا من جميع الجوانب.

نْتَا مْثَلْ لقَهْوَة، وَلْقَهْوَة دْيَال زْبْـعَة، مَنِّينْ مَا نْشَرْبَشَايْ نْبَاتْ مْرَوْعَة.

تحاول المرأة في هذا الخطاب حلا كلام يتميز بإيقاع متميز يجعل السامع معجبا به، ولعل من بين الكلمات التي قد تطرب أذن السامع (المخاطب) القهوة، التي تعد مشروبا يخلف التوازن والسواء النفسي لدى الشخص، وذلك في وقت محدد، وهذا ما أشارت إليه في كلامها ربعة، كما أن فعل التخلي عن هذا المشروب قد يعرض صاحبه إلى اللاتوازن، وهذا ما أشارت إليه في كلامها في هذا الخطاب (مروعة).

إلا أن هذا الخطاب هو موجه في الحقيقة امرأة إلى مخاطب قد تتنوع علاقتها به (أب – أخ – زوج – ابن)، حيث شبهتهم وما يقوم به من تأثير عليها إذا لم تشربه:

مُول صْبِيبَطْ عَرْبِي، رَجْلُو فِي تْ قَّاشَرْ مَطْوِي، نَـرْعَاوْ نَـوَّارُ ومْحَدُّو طْرِي.

لقد جعلت المرأة من خطابها حرفا مثيرا للانتباه (حرف الطاء).

حيث تحاول أن توجه خطابها إلى رجل ذا قيمة متميزة وراقية من أجل نيل خيراته وعطايا، وهذا ما أشارت إليه من خلال كلامها (نرعاو نوارو محدو طري).

أَيَّا سَكْنَا لَمْدِينَة دِيمَا كَاسبة لَمْرَايا، دِيمَا كَتْشُوف وَجَاهَا حَتَّى لَقْفَاهَا، هَذِي دَّاتْ زْدَا مَنْ بَّاهَا، قْرِيتَشْ عَلَى نْسَا يْشْبَاوْهَا، واللهْ لاَشْرَات لْ بَـقْرَة، والله لاَشْرَاتْ الـ نَّـعْجَة، المَالْ أَيْخَصُّو لَلْقْبِيحَةِ دَنْسَا رَ بْـعَة دَلْعْجولْ فِي يَدَّا، دَبْدَا طَوْلَمْ فِي الدَّمْنَا، كُلْ نْـهَارْ

لقد نوعت المرأة في خطابها من بعض القوافي الداخلية التي جعلت من هذا الكلام إثارة وتشويقا، حيث حاولت أن تقارن بين المرأة الحضارية والقروية، وجعلت الأولى في توازن وراحة وطمأنينة، كما جعلتها تتمتع بقيمة وجمال متميز، في حين جعلت القروية تقوم بعمل تتحمل فيه مسؤوليتها في حياتها الخاصة والعامة:

كيفك كيف الـ تَّـفَّاح، التفاح ما فيه طْرِيب وَنْحَطُّوه فِي البير عَلَى يد الطبيب.

إنّ أهم ما يميز خطاب المرأة البرنوسية هو نطقها لحرف الضاء طاء، وهذا ما يتضح لنا من خلال كلامها (طريب)، كما أن هذه المرأة تحاول أن تستحضر في كلامها عنصرا من عناصر الطبيعة، ويتعلق الأمر هنا بفاكهة التفاح، التي لها دلالة رمزية وجمالية تمنح لإنسان له مكانة راقية في قلبها:

والهَوْدَة عَلَى عَيْنْ عْلَقْ و قَـلْبِي مْعَكْ وعْطِيني الزِّيفْ دْيَالَكْ نَمْسَح لَعْرَق.

تحاول المرأة في هذا الخطاب استحضار قافية مثيرة للانتباه، ويتعلق الأمر هنا بقافية القاف، كما أنها قطعت مكانا ينبض بالحياة (عين علق)، وهذا الكلام موجه من امرأة إلى حبيبها تحاول أن تناجيه من خلاله وتبرز كذلك درجة حبها له.

وفي إطار تحمل مسؤولية المرأة مع زوجها، حيث نجدها تخاطبه بعبارات الضد إلا أنها تقصد العكس وفي هذا تقول:

يَـعْدُو يَا بَـلَّـعْدُوا قُـ تْـلَكْ يَا الله نْـرَحْلُو، مَعَنَّا فَاشْ نَـوْحْلُو، نَشْرَبْ لَبْحَرْ عْلِيكْ وَيْجِينِي حْلُو.

وفي إطار ملاطفة المرأة لزوجها، وإعجابها به، تقول أيضا في هذا الصدد:

- إدريس يَالَفَّلَّسْ، والرَّادْيُو تَـهَرَّسْ، عَـ يْـنَاكْ كُوحَلْ طَيَّحُوا فِيَّ النَّصْ.
- يَافْطَيَّبْ اللُّوزْ، مْرَكَّنْ مَا شِي مَهْزُوز، وَلَكْتَابْ فِي هَاذْ الرَّاسْ لاَ بُدَّ يْدُوزْ.

- نْتَا كِيفْ لْفَلُّوسْ، نْحَمْرَكْ فِي لُّقْسْبَارْ وَلْمَعْدْنُوسْ، وَنْدَ فْبَعَكْ لَرَّئِيسْ حَارَسْ لَكنُوسْ.
- مُولْ شْوَيَّشْ لَوَيه، وَيلاَ تْقَطَّاعْ رْمِيه، أَجِي لَكْلِيبْ وَحَلِّيه، وْشُوفْ لُحُبْ دْيَالَكَ شْنُو دَارْ فِيهْ.
- أَيَا خويَا عَيْنِيكْ كِي لِيبَارِي، دَخْلُو في اللَّحَمْ دْيَالِي، سَلْبُو الرُّوحْ، وَلْخَشْبَة بْقَاتْ.

كما تقول في حق الإنسان غير المنتج، والذي لا يستطيع أن تأتي لها بلقمة العيش:

- هَادْ لْإِنسَانْ مَنْدُودْ وَلْحَكَّة فِيه، دْقَ يَّلْ حَادَ طْفِيلَة، دَقْلِيهْ، الله يَرْدْ بِيهْ مَهَادْ ثَمَارَا دْفِيهْ.

من خلال هذا القول يبدو لنا أن المرأة، احتلت مكانة هامة في قول الزجل وخصوصا في عرض الغزل، وهذا ما تأكد لنا من خلال خطابها الذي تعد منابه آنفا. وهذا الخطاب كانت تحاول من خلال الإفصاح عما يروج بداخلها، وذلك في مناسبات الفرح (الزفاف – العقيقة – الختان...).

خاتمة:

استنادا إلى ما سبق تبين أن للمرأة خطابا خاصا بها في شتى السياقات الاجتماعية والثقافية، إذ إن التعابير التي توظّفها تشكّل كيانا حيويا يعكس تميّزها من حيث رؤيتها للأشياء والأحاسيس والأفكار. وللمرأة الغياثية والبرنوصية بتازة نصيب من هذه التميّز الخطابي المحكوم بالظروف الاجتماعية التي تسوقها نحو انتقاء أقوال تجمع بين كلمات معبّرة ومؤثّرة من حيث صيغها وتراكيبها ودلالاتها. وعلى هذا الأساس يكون خطابها مرآة لكيانها الاجتماعي المؤثر والمتأثر في مختلف مواقف الحياة اليومية والمناسبات الاجتماعية.

الهوامش:

(1) دي سوسير، فرديناند، دروس في الألسنيّة العامّة، تعريب صالح القرماوي ومحمد الشاويش، الدار العربيّة للكتاب، ط1، 1985، ص10.

(2) بنكراد، سعيد، السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار، اللاذقية، ط3، 2012، ص9.

(3) ينظر: غارمادي، جولييت، اللسانة الاجتماعية، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1990، ص: 52-53.

(4) أشار، بيار، سوسيولوجيا اللّغة، ترجمة عبدالواحد ترّو، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1996، ص13.

(5) خرما، نايف، أضواء على الدراسات اللّغويّة المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، العدد(9)، الكويت، 1978، ص107.

(6) أشار، سوسيولوجيا اللّغة، ص151.

(7) فندريس، جوزيف، اللّغة، تعريب عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصّاص، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950، ص7.

(8) انظر: خلود، العموش، الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2005، ص41-107.

(9) ابن جنّي، أبو الفتح عثمان (ت 392هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النّجار، دار الكتب المصريّة والمكتبة العلميّة، القاهرة، ط1، 1957، ج1، ص33.

(10) عبده، الراجحي، فقه اللّغة في كتب العربيّة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1988، ص71.

(11) نهاد، الموسى، الأعراف أو نحو اللّسانيّات الاجتماعيّة في العربية، الملتقى الدولي الثالث في اللّسانيات، تونس، العدد السادس، الجامعة التونسيّة، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، 1986، ص147.

(12) هدسون، علم اللّغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1990، ص12.

(13) هادي، نهر، اللّسانيات الاجتماعيّة عند العرب، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، ط1، 1998، ص18.

(14) كمال، بشر، علم اللّغة الاجتماعي/مدخل، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1994، ص47.

(15) خرما، أضواء على الدراسات اللّغويّة المعاصرة، ص121.

(16) أشار، سوسيولوجيا اللّغة، ص11.

(17) بوشوك، مصطفى، علم اللّغة الاجتماعي وتعليم العربيّة الفصحى، المدرسة العليا للأساتذة، الرباط، العدد (4-5)، 1978، ص42.

(18) مصطفى، لطفي، اللّغة العربيّة في إطارها الاجتماعي، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1976، ص47.

(19) صبري السّيد، علم اللّغة الاجتماعي: مفهومه وقضاياه، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ط1، 1995، ص7.

(20) كمال، بشر، دراسات في علم اللّغة، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1973، ص58.

(21) محمود، السعران، اللّغة والمجتمع: رأيٌ ومنهج، بنغازي، ط1، 1958، ص56.

(22) أشار، سوسيولوجيا اللّغة، ص23.

(23) صبري السيد، علم اللّغة الاجتماعي، ص8.

(24) نفسه، ص9.

(25) أشار، سوسيولوجيا اللّغة، ص3.

(26) كمال بشر، علم اللّغة الاجتماعي، ص198.

(27) هادي، نهر، اللّسانيات الاجتماعيّة عند العرب، ص44.

(28) إبراهيم، عبدالله، التلقّي والسياقات الثقافيّة، مؤسّسة اليمامة الصحفية، الرياض، ط1، 2001، ص9.

(29) فان، دايك، النص: بنياته ووظائفه مدخل أوّلي إلى علم النص، ترجمة محمد العمري، الدار البيضاء، ط1، 1996، ص78.

(30) عيّاشي، منذر، الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002، ص9.

(31) نفسه، ص141.

(32) نفسه، ص55.

(33) العبد، محمد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط1، 2005، ص7.

(34) نفسه.

(35) Kajend mesthrie,joan swann,ana deumert and williaml.leap , Introduting sociolinguistics, second edition , Edinburgh University Press ,2000-2009, p 213-214 .